With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"تولدوت" هو النصّ الأسبوعي السادِس من كتاب "بريشِيت" (سِفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية التاسعة عشرة من المَقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية التاسعة من المَقطع الثامن والعشرين.

عَاقِبَةُ الصَّمْتِ

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

خرج الحاخام نفتالي تسفي يهوداه برلين، المعروف بال"نَتْسيف" (1816–1893)، وعميد يشيڤاة فولوزين، بملاحظة دقيقةٍ جديرةٍ بالتأمّل، وهي أنّ العلاقة بين يتسحق/إسحق ورفقه/رِفقة لم تكن قائمةً على القرب والتواصل الوثيق، على عكس العلاقة بين ساره وأفرهام/إبراهيم، أو راحيل ويعقوف/يعقوب. فحين واجه أولئك الأزواج مشاكل زوجية، لم يترددوا في الحديث عنها، ولم يكن الأمر كذلك مع رفقه.

في تفسيره للآية الخامسة والستين من المقطع الرابع والعشرين من سفر التكوين، كتب ال"نَتْسيف" أن رفقه حين أبصرت يتسحق لأوّل مرة وهو "يُصَلِّي فِي الصَّحْرَاءِ عِنْدَ تَوَلِّي اللَّيْلِ"، غطّت وجهها بالحجاب. وقد علّق ال"نَتْسيف" على تصرّف رفقه قائلًا إنّه كان نابعًا من رهبةٍ داخلية وشعورٍ بعدم الاستحقاق، كما لو أنّها كانت تشعر بأنّها غير جديرة بأن تكون زوجة له. ومنذ ذلك الحين، ترسَّخَت هذه الرهبة في داخلها، ملقيةً بظلالها على العلاقة بينهما بعد ذلك. ويشير ال"نَتْسيف" إلى أنّ علاقتهما لم تكن أبدًا علاقة تتّسم بالدفء والانفتاح، بل كان يغمرها الجفاءُ، وصمتٌ يُخفي أكثر مما يُفصح.

هذا الصمت، كما يرى ال"نَتْسيف"، لم يكن مجرّد حدثٍ عابر، بل أصبح سِمةً دائمة للعلاقة، تركت أثرها في لحظاتٍ مفصلية بالغة الأهمية. ومن المرجح أن رفقه لم تُخبر يتسحق أبدًا بالنبوءة التي تلقتها من الله عزّ وجلّ قبل أن تلد توأميها، عيسف/عيسو ويعقوف، تلك النبوءة التي وردت في الآية الثالثة والعشرين من المقطع الخامس والعشرين من سفر التكوين: "إِنَّ آبَاءَ أُمَّتَيْنِ فِي بَطْنِكِ، وَحِزْبَيْنِ مِنْ أَمْعَائِكِ يَتَفَرَّقَانِ، وَيَتَأَيَّدُ أَحَدُهُما من الآخَرِ، وَالْكَبِيرُ يَخدِمُ الصَّغِيرَ". وهذه النبوءة على الأرجح كانت السبب الذي جعلها تُحبّ يعقوف دون عيسف، لأنها كانت تعلم أنه هو المختار من قِبل الله ليحمل العهد. وإذا كان يتسحق على علم بهذه النبوءة، فلماذا كان يُفضّل عيسف؟ الأرجح أنّه لم يكن على علمٍ بتلك

النبوءة، لأن رفقه لم تُخبره أساسًا بها. ولهذا السبب، بعد سنوات عديدة، عندما سمعت رفقه أنّ يتسحق ينوي أن يبارك ابنه البكر عيسف، اضطرت للجوء إلى حيلةٍ لتفادي الأمر ،فطلبتْ من يعقوف أن يتظاهر بأنه عيسف. والسؤال البديهي هنا: لماذا لم تُصارح زوجها ببساطة بحقيقة الأمر؟ لماذا لم تُخبره أن يعقوف هو من يجب أن يُبارك بحسب النبوءة؟ والجواب على هذا السؤال لا يخلو من مرارة، إذ إنّها كانت حينها ستضطر للاعتراف بأنها أخفت عن زوجها هذه النبوءة طوال سنوات نشأة ولديهما. ولو أنها تحدثت إلى يتسحق في يوم البركة، لربما قال لها شيئًا كان من شأنه أن يُغيّر مجرى حياتهما ومصير ولديهما.

أتخيّل يتسحق يقول لها: "بالطبع أعلم أن يعقوف هو من سيواصل العهد، لا عيسف، لكنني أعددت لكل واحد منهما بركة خاصة به. سأمنح عيسف بركة الثروة والقوة: "فليُعطِكَ اللهُ منْ طَلِّ السَّمَاءِ، وَدَسَمِ الْأَرْضِ... لِتَخْدِمْكَ الأُمَمُ، وَتَخْضَعْ لَكَ الأَخْرَابُ"، كما وَرَدَ في الآيتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين. أما يعقوف، فسأمنحه البركة التي أعطاها الله لأفرهام ولي، بركة النسل والأرض: "اللهُ القَدِيرُ يُبَارِكُ عَلَيْكَ، وَيُنمِيكَ وَيُكْثِرُكَ ،وَيَكُونُ مِنْكَ جَوْقَ أُمَمٍ: وَيُعطِيكَ بَرَكَةَ أَفْرَهَامَ، لَكَ ولِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ، أَنْ تَحُوزَ بَلَدَ سَكَنِكَ، الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ لِأَفْرَهَامَ"، كما ورد في الآيتين الثالثة والرابعة من المقطع الثامن والعشرين من سفر التكوين".

في الواقع، لم يكن يتسحق ينوي أبدًا أن يعطي بركة العهد لعيسف، بل أراد أن يمنح كلّ ابنٍ البركة التي تناسبه. وبالتالي، لم تكن للحيلة التي دبّرتها رفقه ونفّذها يعقوف أيّ ضرورةٍ من الأساس. فلماذا لم تُدرك رفقه ذلك؟ والجواب على هذا السؤال لا يخلو أيضًا من مرارة: لأنّها لم تكن تتواصل مع زوجها.

فلنتأمل الآن عواقب هذا السلوك: كان يتسحق في ذلك الوقت شيخًا كبيرًا كفيفَ البصر، وحين أدرك أنّ ابنه يعقوف قد خدَعه، اهتزّ من أعماقه، كما ورد في الآية الثالثة والثلاثين من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين: "فَزُعِجَ يِتسْحَقُ زَعْجَةً عَظِيمَةً جِدًّا". ثم قال لعيسف، كما ورد في الآية الخامسة والثلاثين من المقطع نفسه: "قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ، وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ". ولم يكن يتسحق وحده من شعر بالخيانة، فقد شعر بها عيسف أيضًا، فامتلأ قلبه بغضبٍ شديدٍ وكراهية عميقة تجاه أخيه، حتى أقسم أن يقتله. وهكذا اضطرت رفقه إلى أن تُبعِد يعقوف، فأرسلتْهُ إلى المنفى حارمةً نفسها من صحبته لأكثر من عشرين عامًا عاشت خلالها بعيدةً عن الابن الذي أحبّته أشدَّ الحبِّ.

وبالنسبة ليعقوف، لم تقتصر عواقب ذلك الخداع على تلك الفترة فحسب، بل امتدّت لتُشكّلَ حياته كلّها، إذ تخاصمت زوجاته أيضًا، وتنازع أبناؤه فيما بينهم. وقد لخّصَ حياته لفرعون عندما شاخ بهذه الكلمات الواردة في الآية التاسعة من المقطع السابع والأربعين من سفر التكوين: "سِنُو (سِنِينُ) عُمْرِي كَانَتْ قَلِيلَةً رَدِيئَةً"، وهي كلماتٌ صادرةٌ عن قلبٍ أنهكته التجارب والمصاعب. وهكذا نجد أمامنا أربعَ حياواتٍ تشوّهَت بندبةٍ واحدة، بفعلٍ واحد لم يكن له أيُّ داعٍ من الأساس لأنّ يتسحق قد منح يعقوف بالفعل "بركة أفرهام"، وهو يعي تمامًا أنّ الشخصَ أمامه هو يعقوف لا عيسف، دون الحاجة إلى تدبير أيِّ حيلةٍ.

هذا هو الثمن الإنسانيّ الذي ندفعه مقابل الفشل في التواصل، والتوراة صريحةٌ بشكلٍ استثنائي في مثل هذه الأمور، وهذا بالضبط ما يجعلها دليلًا قويًا دائم الصلة بحياتنا الواقعية، إذ إنّها تروي قصص أشخاصٍ حقيقيين يواجهون مشكلاتٍ حقيقية. وإنّ التواصلَ بين الناس هو أمرٌ بالغُ الأهمية. وفي البدءِ، خلق الله العالمَ الطبيعيّ بالكلمات، كما ورد في أول مقطعَين من سفر التكوين: "وَقَالَ اللهُ: لِيَكُنْ...". وبالمِثل، نخلِقُ نحنُ البشر عالَمَنا الاجتماعيّ بالكلمات. وإنّ التَرغوم/ترجمة أُنكِلوس، وهي الترجمة اليهودية الآرامية الرئيسيّة للتّوراة التي تُقرَأ وتُفسَّر إلى جانب النصّ العبريّ، يترجم العبارة "فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً،" الواردة في الآية السابعة من المقطع الثاني من سفر التكوين، على الشكل التالي: "صَارَ آدَمُ نَفْسًا نَاطِقَةً ". وبالنسبة إلينا نحن البشر، فإنّ الكلام هو الحياة، فالحياةُ لا تقوم إلّا على العلاقات بين البشر، وهذه العلاقاتُ لا تُكَوَّنُ إلّا بالكلمة، حين نكشف لبعضنا البعض عمّا يجول في أعماقنا من آمالٍ ومخاوفَ، ومشاعرَ وأفكار.

ولهذا السبب، يجب على كلّ قائد، بدءًا من الوالدين في البيت، إلى الرئيس التنفيذيّ في الشركة، أن يجعل التواصل الفعّال والمنفتح والشفاف والصادق مهمّته الأساسيّة. فبذلك تنشأ علاقاتٌ صحيةٌ بين أفراد العائلة، ويتعاون أعضاء الفريق فيما بينهم، وتزدهر ثقافات المؤسّسات. ويجب على كلّ فردٍ أن يُدرك الغاية المشتركة التي يسعى إليها الجميع معًا، لا كأفرادٍ متفرّقين، بل كجسدٍ واحد يعمل بروح الفريق، وأن يعرف موقعه داخل هذا الجسد، والدور الموكّل إليه، والمسؤوليات التي يحملها على عاتقه، والقيم والسلوكيات التي يُنتظر منه أن يُجسّدها.

يجب أن ينال من يجيد عمله الثناء الذي يستحقه، كما يجب أن يُوَجَّهَ نقدٌ بنّاءٌ لكلِّ من يُخطئ. ولا يجب أن يكون النقد موجَّهًا إلى الشخص بحدّ ذاته، بل إلى الفعل الذي قام به، حتى يشعر الإنسان بأنّه محطُّ احترامٍ، مهما كانت إخفاقاته. وهذه السّمة الأخيرة تُشكّل إحدى الفروقات الجوهريّة بين "ثقافة الذنب"، التي تُعدّ اليهودية مثالها الأسمى، وتُفرّق بوضوحٍ بين الخطأ ومن ارتكبه، لأنّ الإنسان يُفترَض فيه أن يحمل في داخله شعورًا بالذنب حين يُخطئ، وبين "ثقافة العار"، كما في اليونان القديمة، التي لا تنبع من الضمير، بل من نظرة الآخرين، فتجعل قيمة الإنسان مرهونةً بالحكم الخارجي عليه.

هناك لحظاتٌ يكون للتواصل الواضح خلالها أهميةٌ كبيرةٌ للغاية. بل ليس من المبالغة القول إنّ مصيرَ أُمّة، بل أحيانًا مصيرَ العالم بأسره، قد يرتبط أحيانًا بكلمةٍ واحدة تُقال في الوقت المناسب، وتُفهم على وجهها الصحيح. وقد حدث ذلك خلال أزمة الصواريخ الكوبيّة عام 1962، عندما كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على شفا حرب نووية. ففي ذروة التوتّر، كما يروي روبرت مكنمارا في فيلمه The Fog of War (أي "ضباب الحرب")، تلقّى الرئيس الأمريكيّ جون ف.كينيدي رسالتَين من الزعيم السوفييتي نيكيتا خروتشوف: إحداهما تفتح باب المصالحة، والثانية تنذر بالتصعيد. وقد اعتقد معظم مستشاري كينيدي أن الرسالة الثانية هي التي تعبر عن آراء خروتشوف الحقيقية، وبالتالي يجب أخذها على محمل الجد.

لكن رجلًا واحدًا، وهو لويلين طومسون الابن، السفير الأمريكيّ السابق لدى موسكو بين عامَي 1957 و1962، والذي كان قد عاش فترةً من الزمن مع خروتشوف وزوجته، قال بثقة إنّ الرسالة التصالحيّة أقرب إلى تفكير خروتشوف الذي كان يعرفه جيدًا، وتبدو له الأقرب إلى رأي خروتشوف الشخصيّ، في حين أن الرسالة الأخرى، التي لم تكن تتوافق مع نمط تفكيره، كُتبت على الأرجح لإرضاء جنرالات الجيش السوفييتي. استمع كينيدي إلى نصيحة طومسون، وردّ على الرسالة الأولى بما أتاح لخروتشوف فرصةً للتراجع من دون أن يفقد ماء وجهه، وكانت تلك هي الخطوة التي جنّبت العالمَ ويلاتِ الحرب. ومن المخيف تَخيُّل ما كان سيحدث لو لم يكن طومسون هناك ليُخبِرهم بأنّ الرسالة التصالحية هي التي كانت نابعةً من رغبةٍ صادقةٍ في التواصل، لا الرسالة الأخرى التي تهدّد بالتصعيد.

وبالمثل، لا بدّ للآباء والمربّين والقادة أن يُشيِّدوا الأساس لثقافةٍ تقوم على التواصل الصادق والمنفتح والمحترم، ثقافةٍ لا تقتصر على التحدّث فحسب، بل على الإصغاء أيضًا. فإن غابت هذه الثقافة، ستتربص لنا المأساةُ في الظلّ، منتظرةً لحظة انقضاضها علينا.

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion*